

تنتهي فترة ما قبل التاريخ وتبدأ الفترة التاريخية عند كتابة المصادر، وأما بالنسبة لآشور فقد وصلت آشور تلك المرحلة في النصف الثاني للألف الثالث ق. م أي بعد نصف ألف بالنسبة لوجود سومر في الجنوب، إذ إن علم الآثار الملكي في إقليم ما قبل التاريخ لم يعد كذلك مع أنه يستمر في لعب دور حيوي، وذلك لأنه ترك لنا نقوشاً تعتمد عليها إعادة بناء التاريخ بصورة منتظمة، وبالنسبة لهذه الفترة وبالنسبة للألوف التالية من السنين، فإن هذه النصوص على اختلافها في محتوياتها أو لغتها تمتلك شيئاً واحداً مشتركاً، فهي كلها مكتوبة بالخط المسماري، وفي هذا الخط تضغط الحروف في أقراص صغيرة من الغضار أو تنقش على أنصاب من الحجر أو المعدن، وأما في محتوياتها فإنها اقتصادية ودينية وتاريخية أو قاموسية معجمية أو واحدة من الفصائل الأخرى، وبالنسبة للغة فمع أن اللغة السامية الأكادية كانت أكثر استعمالاً إلا أن هناك عدة لغات استعملت في النصوص، ولكن كان لجميع هذه النصوص جذورها القديمة حيث اخترعت الكتابة قبل عام ٣٠٠٠ بوقت قصير.

تعود بعض هذه النصوص المسمارية مثل النقوش الموجودة على بعض الأشياء المكرسة للمعابد مباشرة إلى الزمن الذي كتبت فيه، وهناك نصوص أخرى أكثر أناقة تحفظ فيها المعلومات حول الحوادث قبل تاريخ تأليفها.

وهناك وثيقة واحدة من النوع الأخير تبدو أنها تسهل عملنا في تأليف أطر التاريخ الآشوري القديم، فالوثيقة المذكورة تدعى عادة قائمة ملوك آشور (وهي موجودة بعدة نسخ) وفيها يذكر أسماء الحكام اعتباراً من الألف الثالث حتى القرن الثالث ق. م وعندما تذكر هذه الوثيقة الملوك بتواريخ وجودهم وتضع

افتراضات معقولة للملوك ترجع إلى نحو ٢٥٠٠ ق.م ولكن هناك أسباباً لعدم استعمائنا لها بهذا الأسلوب البسيط.

إن أول ملك آشوري معروف من النقوش التي صنعها لنفسه هو شمسي أداد الأول (١٨١٣ - ١٧٨١) إن هذا الملك هو الذي يقدم لنا أول نقطة ثابتة معينة بالنسبة للتواريخ الآشورية، نظراً لأنه تواكب مع تاريخ حمورابي في بابل الذي كانت تواريخه معروفة، وقبل الملك شمسي أداد، تذكر القائمة ثمانية وثلاثين ملكاً أو ملوكاً فرعونيين، وهذه الأسماء موضوعة بشكل مجاميع، فالسبعة عشر الأولى لخصت حياتهم بأنهم ملوك يعيشون في الخيام، وبعدها عشرة ملوك وصفوا بأنهم من الأجداد، وبعدها ذكرت مجموعتان كل منها تحتوي على أسماء ستة ملوك، وبعدها شمسي أداد.

ويلاحظ القارئ النبيه أن أعداد الملوك في قائمة الملوك (قبل شمسي أداد) تصل إلى ٣٩ ملكاً، مع أنه قد ذكر أن الملوك قبل شمسي أداد كان عددهم ٣٨، وهذا التناقض وقع لأن نفس الاسم ذكر في نهاية كل مجموعتين وهذه مصادفة تدل على أن بنية وأصل هذه القوائم تستحق فحصاً واستقصاءً أكثر.

إن المجموعة الأولى وهي أسماء الملوك الذين كانوا يعيشون في الخيام هي قائمة صحيحة ذات ترتيب تاريخي، نجد فيها أن الملكين الأخيرين يدعيان أشبيا وأبياشال، ولكن المجموعة الثانية وهي مجموعة الملوك الذين كانوا أجداداً قد رُتبت بشكل مختلف فالأخير في الخط ذكر أولاً، وكان يتبع كل ملك اسم والده وبعد ذلك جدّه بهذه الطريقة.

امنو ابن ايلو ككبكي

ايلو ككبكي ابن يازخور ايلو

يازخور ايلو ابن ياكاميني

وبالنسبة لمطابقة ياكاميني وستة أجيال أخرى قبله كان أقدمهم زمناً هو:

أبياشال بن أشبيا.

وهكذا وفي هذه المجموعة الثانية ذكرت أسماء الملوك اعتباراً من الأخير إلى الأول، ولكن أيباشال كما هو الحال في القائمة الأولى يذكر في المؤخرة مع أن هذا الترتيب يجعله أقدم المجموعة، وبهذه الطريقة أصبح أيباشال يخدم كهمزة وصل بين القائمتين مع أن الفروق بالشكل بين القائمتين تومي بأن لا علاقة بينهما.

إن هذه الترتيبات الاصطناعية غير الطبيعية تثير الشك حول طبيعة قائمة الملوك الآشوريين بالنسبة للفترة الأولى، وهكذا فسوف نعود إلى الأرض الصلبة لنرى ما تقوله الوثيقة حول شمسي أداد.

وبالنسبة لمعظم الملوك هناك تفاصيل وافية، أما بالنسبة لشمسي أداد فإن القائمة تعطي تفاصيل خاصة بشكل استثنائي عندما تصف الظروف التي ارتفع بها إلى السلطة، وهنا نقرأ في الجزء المختص بهذه القضية مايلي:

شمسي أداد ابن إيلوكبكي في زمن نارام سن (أحد ملوك آشور القدماء) ذهب إلى كاردونياش (أي: بابل) ثم رجع من كاردونياش، واستولى على بلدة إيكالاتو وبقي في إيكالاتو مدة ثلاث سنوات، ثم خرج من إيكالاتو وأزال إيديشوم ابن نارام سن عن العرش واستولى على العرش.

ولا يخفى أن شمسي أداد استولى على العرش في آشور بعد إزالة ممثل أسرة حاكمة موجودة كانت هي الأسرة الآشورية الوطنية، ممّا يوضح أن شمسي أداد كان مغتصباً للسلطة، وهنا يتبادر إلى أذهاننا السؤال الذي يطرحه المعاصرون فضلاً عنّا نحن وهو: ماذا كانت خلفية شمسي أداد؟ والجواب الذي تقدمه قائمة الملوك: إنه كان ابن إيلوكبكي.

ولكننا صادفنا إيلوكبكي قبلاً في تلك القائمة فقد كان هو والد أمينو الذي كان هو الأول المذكور ولكنه كان الأخير بالنسبة للملوك الذين كانوا أجداداً، وهكذا يصبح السؤال: أجداد من؟

ومن الممكن الإجابة على هذا السؤال بشكل موثوق: فقد كانوا أجداد شمسي أداد الذي أدخل بشكل ذكي إلى قائمة آشورية من الحكام بقصد تدعيم

سلطته وجعلها شرعية أي جعل سلطة المغتصب شمسي أداد شرعية، وهكذا بإضافة اسمه عن طريق أبياشال إلى قائمة الملوك القدماء في آشور الذين حكموا قبل الأسرة التي خلعها.

فقد استطاع شمسي أداد أن يتقدم وكأنه وريث الحق لتولي عرش آشور من أجداده الذين حكموا قبل الأسرة التي خلعها.

وهنا نود أن نعود بشكل مقتضب إلى المجموعة القديمة للحكام المزعومين في قائمة الملوك الآشوريين وهم السبعة عشر ملكاً الذين كانوا يعيشون في الخيام، إذ إن لدينا قائمة بأسماء أجداد الملك حمورابي البابلي الذي كان معاصراً لشمسي أداد، وفي هذه القائمة نجد اثني عشر اسماً في قائمة حمورابي متطابقة مع الاثني عشر اسماً من أسماء الملوك السبعة عشر الذين كانوا يعيشون في الخيام وهم من قائمة الملوك الآشوريين، والآن نلاحظ أن عائلات كل من حمورابي وشمسي أداد كانت من أصل عموري وكان العموريون شعباً سامياً أتى إلى منطقة ما بين النهرين من الصحراء الغربية في وقت قصير قبل أو بعد عام ٢٠٠٠ ق.م. وهكذا فإن الأسماء الاثني عشر المشتركة بين الآشوريين والبابليين ينبغي أن تمثل بعض الرؤساء والشيخوخ من عهد البدو الرحل، قبل أن ينقسم العموريون إلى مجموعات منفصلة، وقبل أن يستقروا في منطقة ما بين النهرين، وإن إيلوكبكي والد شمسي أداد يتصل مع هذا الخط من خلال أبياشال بن اشيبا، وبهذا يصبح شمسي أداد هو السليل المباشر المنحدر من خط أقدم للزعماء البدو الرحل من الأزمنة القديمة.

وهنا لا بد أن نذكر كلمة عن الأسماء الخمسة في مجموعة السبعة عشر ملكاً الذين كانوا يعيشون في الخيام، إذ إن بعضهم ربما كانوا هم الحكام الحقيقيين القدماء الذين حكموا آشور، واحدهم الذي كان حاكماً حقيقياً هو اشيبا والد أبياشال نظراً لأن هناك إحدى الروايات المستقلة عن قائمة الملوك الآشوريين تذكر أنه كان قد بنى واحداً من أقدم المعابد في آشور، وإن هذا الاتصال مع إحدى المجموعات للزعماء العموريين من البدو الرحل المفترض أنهم من

أجداد شمسي أداد، ولكونهم الحكام الحقيقيين لآشور منذ الأزمنة القديمة كل هذا يخدم في إعطاء شمسي أداد صلة (ولو أنها زائفة) مع ملوك آشور تعود إلى العهود التي امتد بها حكم ملوك آشور الحقيقيين.

وهكذا فنحن لا نستطيع أن نثق بقائمة الملوك الآشوريين وبقيمنتها كقائمة صادقة موثوقة لتعداد جميع الملوك في آشور قبل شمسي أداد، وهذا يوصلنا إلى سؤال عمّن كان الحكام الحقيقيون القديما في آشور؟ وفي معالجة هذه المشكلة علينا أن نلاحظ أن كثيراً من الشواهد القديمة لدينا إنما تعود إلى مدينة آشور بالذات أكثر من عودتها إلى آشور بشكل واسع، ومع أن نفس الاسم يستعمل لمدينة آشور ولبلاد آشور في اللغة الأكادية، إلا أنه جغرافياً لم يكن الاسمان متماثلين، فالأرض التي حكمتها مدينة آشور كانت أصغر مما نفهمه من بلاد آشور.

وعدا عن اشتمال قائمة ملوك آشور لبعض الأسماء القديمة الذين لم يكونوا في أي وقت من الأوقات ملوكاً لآشور، إلا أن هذه القائمة تغفل ذكر أسماء آخرين كانوا كذلك، وإن أول هؤلاء المعروفين لدينا كان شخصاً اسمه (إيتيتي) وهو مذكور في نقوش مقتضبة على قطعة من الألاباستر تعود إلى الفترة الأكادية القديمة ٢٤٠٠ - ٢٢٠٠ ق.م. ومفادها مايلي: إيتيتي: الحاكم ابن إينين لبا قد كرّس هذا النقش إلى الآلهة إينين من غنائم (جاسور).

وكانت جاسور هي الاسم القديم لإحدى المدن عرفت فيما بعد باسم نوزي قرب كركوك، وهكذا يخبرنا هذا النقش أن منطقة كركوك لم تكن في ذلك الوقت جزءاً من مملكة آشور، بل كانت عبارة عن دولة مدينية منفصلة ومعادية، وهذا الانفصال لم يكن قضية عرقية نظراً لأن النصوص التي وجدت في جاسور تُظهر أنه عند الحكم عن طريق الأسماء الخاصة الموجودة خلال الفترة الأكادية القديمة (وليس في وقت متأخر) فإن أكثرية السكان في تلك المدينة كانوا من الساميين كما هو الحال لدى سكان آشور، ونظراً لأن آشور كانت لا تزال مستقلة، عندها ربما يستنتج المرء أن المدينتين الرئيسيتين نينوى وأربيل

وكلاهما بعيدتان عن جاسور لم تكونا في ذلك الوقت جزءاً من مملكة أساسها آشور.

وقد لاحظنا في الفصل الأول سيطرة وقوة آشور ونيوى اللتين كانت تحكمهما الأسرة الأكادية (في القرن الرابع والعشرين إلى القرن الثاني والعشرين) وعند سقوط الإمبراطورية الأكادية بسبب غارات قامت بها شعوب أتت من جبال زاغروس تدعى (غوئي) ولكن آشور أيضاً قد تأثرت وعانت من هذا السقوط كما نعلم من خراب أبنيتها التي كشفت عنها أبحاث علم الآثار.

قبل عام ٢١٠٠ ق.م بقليل ظهرت إمبراطورية أخرى في الجنوب وحكمت جميع منطقة ما بين النهرين لمدة قرن وتعرف هذه باسم سلالة أور الثالثة، وقد كانت هذه الإمبراطورية أقل نفوذاً من إمبراطورية أكاد ولكنها كانت أكثر تنظيمياً إذ كان لها مراكز رئيسية يحكمها حكام متنقلون بدلاً من الأتباع المحليين، وهناك نقش يصف واحداً من هؤلاء الحكام يعود إلى عام ٢٠٠٠ ق.م يذكر أنه - وفي ذلك التاريخ- كانت آشور تحت حكم أور، وأما أربيل فكانت تحكمها من حين لآخر سلالة أور الثالثة وذلك طبقاً لما نعرفه من الوثائق الاقتصادية في الزمن الذي نُهب به أربيل ومن نقش سوري يعود إلى الزمن الذي يحدد فيه اسم الحاكم العسكري لأربيل.

لقد انهارت الإمبراطورية البيروقراطية التي تحكمها أور، وهي الرمز الأخير للسلطة السومرية السياسية، وذلك في عام ٢٠٠٦ ق.م تحت ضغط العموريين الذين انقضوا عبر نهر الفرات من الصحراء السورية، ولكن بدأت تلك الإمبراطورية بالتفكك خلال بضعة عقود قبل انهيارها نهائياً وبذلك سمحت لآشور أن تستعيد بعض استقلالها.

فنحن نستنتج هذه الفكرة من إحدى القصص التي تذكر أن شخصاً يدعى كيكيا بنى أسوار آشور، ويمكننا أن نعرف تاريخ كيكيا نظراً لأن اسمه

مذكور في قائمة الملوك الآشوريين قبل اسمي ملكين نملك نقوشاً تخصهما ، ونظراً لأن هذين النقشين يمكننا من معرفة تاريخ هذين الملكين إلى زمن بعد ٢٠٠٠ ق.م بقليل ، لذلك فإن حكم كيكييا ينبغي أن يكون قبل عام ٢٠٠٠ ، ولكن تظهر الحفريات أن بناء أسوار آشور قد حدث قبل ذلك بقرون ، ومع ذلك فإن القصة التي تقول: إن كيكييا هو الذي بنى تلك الأمور لا تخلو من الصحة وأن لها بعض الأساس ، ومن المحتمل أنها تعكس خبر إعادة بناء الأسوار من قبل كيكييا في الوقت الذي استطاع به أن يثبت نفسه كحاكم مستقل ، وهذا من الممكن أن يكون في الزمن الذي بدأت به الأسرة الثالثة بالتقلص والتفتت.

وحتى زمن كيكييا فإن آشور مع أنها كانت ذات أهمية استراتيجية بصفتها مركزاً قوياً في منتصف منطقة دجلة الوسطى ، إلا أنها لم تكن ذات أهمية رئيسية عالمياً ، ولقد بدأ هذا الوضع بالتغير فقد أصبحت النقوش التي تمثل ملوك آشور أكثر انتشاراً وإظهاراً لامتداد نفوذ آشور في الخارج ويشير أحد ملوك آشور في ذلك العهد ، وهو أيلوشوما الذي حكم بعد عام ٢٠٠٠ ق.م مرتين بأنه قد أتم تحرير شعوب آكاد (يعني بابل جنوب منطقة ما بين النهرين) ويذكر بعض مدن بابل حتى مدينة أور جنوباً وهي على بُعد أربع مائة ميل من آشور ، ومن الواضح أن هذا الملك قد قام بنوع من التدخل هناك ، إذ إن معنى «تحرير» الدقيق يبقى غامضاً ، ولكن هناك شيئاً آخر وهو أنه من الخطأ التاريخي محاولة ربط هذا التحرير بمعنى التحرير السياسي ، وهناك كلمة أكادية تترجم بالتحرير بمعنى الإغناء من الضرائب ومن المحتمل أن يكون هذا المعنى عندما ذكر أنه قرر تحرير الفضة والذهب والنحاس ، والقصدير والشعير والصوف والنخالة والتبن ، وهذا يظهر أن لهذه الكلمة معنى اقتصادياً أي: إنه أعفى التعامل بمثل هذه البضائع من الضرائب ، وهناك معنى غامض آخر في إحدى نقوش إيلوشوما من الممكن أن يكون مناسباً هنا ، فعندما ذكر شعب بابل يقول: لقد غسلت نحاسهم. ومن الممكن أن يكون معنى هذا القول أنه باع للبابليين نحاساً ثقيلاً.

وهذا يدل أن هؤلاء الملوك الآشوريين القدماء كانوا مهتمين بالتجارة نظراً لأن التجارة لم تجلب لهم النفوذ السياسي فحسب ولكن الازدهار الاقتصادي المتزايد، وقد انعكس هذا الازدهار الاقتصادي في مشاريع الأبنية الطموحة داخل آشور، ولدينا نقوش تعود إلى إيريشوم الأول حيث يصف كيف أنه قد زاد حجم وعظمة منطقة المعبد ومدّاً سوراً كان قد بدأ والده ببنائه.

إن قلة المعلومات السياسية حول آشور القديمة تجعل تلك المعلومات التجارية المفتضبة ذات أهمية، والحقيقة أننا نعرف الكثير عن التجارة في آشور ما بين عامي ٢٠٠٠ ق.م، وزمن شمسي أداد الأول أكثر مما نعرف عن السياسة، ولا تأتي معظم هذه المعلومات من آشور نفسها ولكن من مصدر واقع على مسافة مئات من الأميال إلى الشمال، وتتألف معظم أجزاء هذه الشواهد من بعض الألواح الفخارية التي وجدت في موقع يدعى كولتيب (اسم قديم لكنيستهم إلى الشمال من قيسرية في تركيا الآسيوية في المنطقة التي غالباً ما تسمى كبادوكيا، وهذه الألواح هي من محفوظات تعود إلى أجيال عديدة لإحدى المستعمرات التجارية الآشورية كانوا يعيشون هناك في بداية الألف الثاني، وكان هناك عشرون مستوطنة من هذا النوع في قيسرية الأناضول، وذلك كما تذكر بعض أسماء الأمكنة في تلك النصوص ولكن هناك مستوطنة أو مستوطنات عرفتنا عن طريق الألواح التي وجدت في مواقعها، ولا نعلم كم من الزمن كان التجار الآشوريون يعملون في الأناضول، إذ إن أقدم التواريخ في السجلات الآشورية الموجودة في كبادوكيا لا تثبت أقدم الأزمنة التي عملت فيها المستعمرات التجارية.

ومن الممكن أن يكون هناك مستعمرات في كبادوكيا لم يكشف عنها بعد، قبل الواحدة في كانيش أو حتى في كانيش نفسها، ومن الممكن أن يكون هناك نشاطات تجارية أقدم تعود إلى إجراءات تجارية لا تحتاج إلى التوثيق على ألواح من الفخار، وطبقاً لرواية متأخرة يقال: إن سرجون أول حاكم للإمبراطورية

الأكادية قد استُدعي إلى كبادوكيا لحماية التجار هنالك وذلك في أوائل القرن الرابع والعشرين ق.م.

فإذا كانت هذه حقيقة ملموسة فإن تاريخ المستعمرات التجارية سوف يتأخر عدة قرون إلى الوراء، ولكن هناك إمكان أن تكون هذه القصة مختلفة لعكس الحالة في كبادوكيا في أوائل الألف الثاني.

يتألف موقع كولتيب وهو المكان الذي دُفنت فيه مدينة كانيش القديمة، من رابية كبيرة حيث كانت القصور واقعة مع وجود مساحة للمساكن في أسفل تلك الرابية، ومن منطقة المساكن هذه كانت المحفوظات الخاصة بالأعمال التجارية، وتبلغ كمية هذه المحفوظات ١٤٠٠٠ لوحة، مع أنه لم ينشر إلا القليل منها، وتغطي الصورة الأساسية لهذه الألواح الانطباع أن لأماكن الأعمال التجارية ممثلين في كبادوكيا (وربما كان هؤلاء هم أصحاب الأعمال أنفسهم) وكانوا ينظمون التجارة في كانيش وغيرها من المدن، وكان هناك في قلب هذه التجارة قوافل الحمير التي كانت تحمل ما تحمله السفن من القصدير والمنسوجات وتنقلها من آشور إلى كبادوكيا.

من المستفيد من هذه المستعمرات التجارية الآشورية؟ إن المجموعة الأولى ينبغي أن يكون الحكام المحليون الذين ما كانوا ليسمحوا للمستوطنات أن تستمر في أعمالها، ولكن الحوافز الرئيسية التي جعلت المستوطنين يستمرون في العمل هي تلك الفوائد التي كانوا يؤمنونها للآشوريين أنفسهم، فالرحلة من آشور إلى كانينين أو بالكلوم الدارج، من قلعة شرجات في العراق إلى قرب قيسرية في أواسط تركيا الآسيوية، ليست رحلة سهلة حتى في هذه الأيام التي يتوفر فيها النقل بالسيارات، فالمسافة تبلغ نحو خمسمائة ميل على الأقل، ولكن أي طريق برية عملية تبلغ حوالي أكثر من سبعمائة ميل على الأقل، وحتى في هذه الأيام فإن بعض الطرق ليست أكثر من طرق مملوءة بالحصى والتراب، ومن الواجب قطع جبال طوروس وهي سلسلة جبلية ضخمة حيث ليس هناك أمان بالمعنى الصحيح. وفي عام ٢٠٠٠ ق.م كانت كل هذه العوامل المحيطة موجودة بدرجة أقوى. ويعتقد

البعض أنه في الوقت الذي تبدأ هذه القوافل رحلاتها عبر هذه المنطقة فإنها تستطيع الاستمرار في العمل بقوة الاستمرار الذاتي خصوصاً أنه كان هناك نظام يريد يساعدها بمراحلها المتعددة التي نشأت حول تلك الأماكن، ومع ذلك فإن هناك علامات استفهام حول سبب بدء مثل هذه الأنظمة في المقام الأول.

لم تكن المستعمرات في كبادوكيا هي المستعمرات الآشورية التجارية الوحيدة المعروفة، فهناك شواهد على مقياس محدود على وجود تجار من آشور كانوا يعملون في مقاطعة كركوك قبل الفترة التي كتبنا عن وجود شواهد فيها من كبادوكيا، وكانت هذه النشاطات أقرب إلى مركز آشور ولكنها تدل وتصوّر مدى اهتمام آشور بالتجارة، فإذا كانت آشور في مركز الحضارة التي تبدأ من سومر فإن التجارة كانت مُجدية بالنسبة إليها، وذلك لأن آشور (شأنها شأن سومر نفسها) كانت بحاجة إلى مادتين من المواد الخام وهي الخشب والمعادن. لقد كان توسع آشور التجاري إلى الأناضول رغبةً بالحصول على المعادن، فقد كانت آشور بحاجة إلى النحاس وكانت الأناضول قادرة على تأمينه، ولكن لم يكن هنا حل كامل للمشكلة نظراً لأنه كان هناك مصادر للنحاس في الأناضول أقرب من كبادوكيا بكثير، ومع ذلك فلم يكن الآشوريون يستخرجون النحاس من مناجمه بأنفسهم، ومن الممكن أن أهالي الأناضول أنفسهم الذين كانوا يقومون بهذا العمل قد ركزوا على عمليات التعدين في كبادوكيا.

وكانت هناك مشكلة أخرى وهي من أين يمكن للآشوريين أن يحصلوا على القصدير الذي كانوا يتاجرون به فلم يكن هناك مصدر للقصدير في آشور أو بابل، وبالافتقار إلى شواهد مرموقة علينا أن نخمن أن القصدير قد استورد إلى آشور من زاغروس أو غيرها ولكن ليس مصدر القصدير هو ما نجهله فحسب بل نحن نجهل أيضاً الآليات التي كان القصدير يصل بها إلى آشور، ومن الممكن وجود مستعمرات آشورية تجارية في إيران أو زاغروس تساعد على الحصول على القصدير ولكن ليس لنا من دليل على ذلك، وحتى كلمة أناكو التي نترجمها

بكلمة القصدير تقدم لنا مشكلة ، فقد ثار الجدل فيما إذا كانت هذه الكلمة تعني القصدير أو الرصاص مع أن الرأي الآن يميل إلى الأولى أي: القصدير، وحتى ولو كان الأمر كذلك فلم نتأكد أبداً أن هذا الاصطلاح يعني القصدير النقي، إذ من الممكن أن يكون أحد خامات القصدير، ولكن الرأي السائد أثناء كتابة هذا الكتاب هو أن أناكو مزيج يحتوي كميات متفاوتة من القصدير والزرنيخ وكان يستعمل لإنتاج البرونز من النحاس أو خامات النحاس وكان الزرنيخ والقصدير يختلطان مع النحاس لإنتاج البرونز.

وإلى جانب القصدير فقد كانت البضاعة الرئيسية التي تعامل بها الآشوريون هي المنسوجات، هذا وإن مصدر هذه المنسوجات النهائي يقدم لنا مُشكلاته، إذ نحن نعلم أن أفضل نوع من المنسوجات كان يأتي من بابل، ولكن هل كانت هذه المنسوجات تتصنع في ورشات عمل أم هل كانت من مصنوعات أعمال بيتية؟ ولكن هناك مشكلات أخرى غير محلولة فمن كان مستهلكو هذه المنتجات في الأناضول؟ وكيف كانت هذه البضائع توزع خلال الأناضول؟ وكيف كان نظام الحكم في الأناضول وكيف كانت علاقة التجار الآشوريين بحكام الأناضول المحليين؟ هذا وإن التهديد والتجدي ليس ببعيد حول أي من هذه المشكلات أو غيرها من نفس الطبيعة ولكن نترك هذا لتعالجه إحدى (إطروحات نيل الدكتوراه من الطُّلاب).

هناك بعض الأشياء التي نعرفها حول التجارة الآشورية في الأناضول على الأقل بخطوطها العامة فنحن نعرف بشكل مكثف عن إجراءات النقل. فكانت البضائع تجمّع في آشور -وربما- وفي حالة القصدير كانت تستورد من أقاصي الشرق، ومن بابل بالنسبة إلى المنسوجات، وبعد ذلك كانت ترسل إلى الأناضول على ظهور الحمير.

وفي الوقت الحاضر لا نعرف كم كانت القافلة تحتوي من الحمير؟ وتذكر النصوص أرقاماً تقرب من عشرين، ولكن هذه تمثل فقط الحيوانات التي تحمل بضائع تاجر واحد، فإذا حكمنا عن طريق الإجراءات المتبعة في كل

وقت وكل مكان في الشرق الأدنى فإننا نتوقع أن يكون هناك عدد من التجار مجتمعين معاً بشكل مواكب أو قوافل كبيرة تقدم المساعدة المتبادلة والحماية، وإن حدوث مثل هذا الأمر لا مجال فيه للشك لوجود بعض الوثائق التي تذكر وجود حمار واحد. وليس هناك من شخص يضحي بوضع حمار واحد محمل بالبضائع النفيسة في طريق يبلغ طولها ٧٥٠ ميلاً تسير فوق جبال صعبة.

إن ما يحمله حمار واحد بمجموعه بما فيه السرج يبلغ مئة كيلو غرام، وكان القصدير يحمل في سلتين تتوازن إحداهما مع الأخرى في كل جانب مع وضع المنسوجات في الأعلى.

ولمنع السلب والنهب في الطريق كانت رزم القصدير تختم بختم من الفخار وكان فتحها يعد ذنباً يعاقب عليه، وكانت المنسوجات التي ترزم بشكل لفائف تختم بطريقة أو أخرى ولكن لا نعرف هذه الطريقة. وكانت عبارة عن بالات من القماش الصوفي مع أنه كان هناك ملابس مصنوعة تصلح لمقاسات مختلفة.

وتذكر إحدى النصوص نوعاً من المنسوجات كاملاً مقاسه ١٣ ١/٢ قدماً بـ ١٢ قدماً، وكان من النادر وجود أنوال لنسج منسوجات بهذا العرض في تلك الفترة وهكذا كانت المنسوجات الكاملة مؤلفة من اتصال شقتي طبقتين كما كان الحال على الأقل حتى الخمسينات ١٩٥٠ بالنسبة للقماش المصنوع يدوياً في كردستان.

كانت قوافل الحمير المحملة بالقصدير والمنسوجات تتجه نحو الأناضول ومعها وثائق كانت محتوياتها تفحص بموجب هذه الوثائق عند الوصول، وبالنسبة للطرق المختلفة المتواجدة لا يمكننا أن نحدد أيها بالتأكيد ولكن من المحتمل أن تكون الطريق الرئيسية تسير نحو نهر الخابور وبعدها إلى بلخ ومن ثم تجاه الأناضول عبر سهل البستان، وهذه من الممكن أن تكون رحلة خطيرة تقطع ٧٥٠ ميلاً وتستغرق نحو شهرين وتذكر النصوص موت عدة حمير على الطريق. وكانت البلدات على طول الطريق تسهل المسيرة وكان هناك طريق واحد في حوالي منتصف الطريق حيث كان من الممكن استئجار سائقي حمير جدد،

وكانت هناك إشاعات تشير أن الأمن في الطريق كان مخيباً للآمال، فقد وجدت هناك بعض الحالات حول بعض التجار الذين حُطِّفوا وطلب الخاطفون فدية، وأما الرحلة خلال الشتاء فقد كانت تسبب أخطاراً إضافية للقافلة من الطقس السيء ومن الذئاب فإذا نجا التاجر من الذئاب فكان أمامه دوماً جباة الضرائب، وذلك أن الضرائب التي تبلغ عشرة بالمئة من قيمة الحمولات، كان ينبغي دفعها على الطريق، بالإضافة إلى ضريبة إضافية تدفع عند الوصول إلى كانيش، ومن المحتمل أن يلجأ التجار إلى عمليات التهريب وذلك للتخلص من تكاليف الجمارك، هناك بعض المقاطع في بعض النصوص تشير إلى هذه الأمور ويذكر فيها كلمة طريق المهريين، ولكن هذا التفسير ربما جعلنا نتوقف قليلاً، فلا يتوقع الإنسان أن يقوم بعمل تعهد لإنجاز عمل غير قانوني كالتهريب الذي تعاقب عليه السلطات أكثر من أن تنفذه، ولهذا فإننا نعد أن طريق التهريب ما هي إلا اصطلاح بمعنى طريق فرعي غير مطروق.

إن الهيئة التي تنظم شؤون التجارة وشؤون المراكز التجارية الأخرى كانت تعرف بالكروم **Karum** وهذه الكلمة تعني: ميناء أو مرسى السفن.

وهناك مشكلة أساسية وهي فيما لو أن التجار الذين يتألف منهم الكروم كانوا من الرأسماليين أو من وكلاء الدولة، فالنصوص تقترح الصفة الأولى، إذ عندما تصل البضائع إلى كانيش كانت هذه البضائع تُسجَّل وتدفع عليها الضرائب في الكروم وبعد ذلك يسمح ببيعها، وكانت البضائع تباع بأثمان من الفضة أو (بشكل أقل) من الذهب، ولكن من الممكن أن تكون الدفعات بالنحاس أو الصوف الذي كان يعاد بيعه بالمعادن الثمينة.

وكانت الأرباح الصافية على القافلة وافرة، وكانت الأرباح تقارب مئة في المئة بالنسبة للقصدير، وربما أكثر من ذلك بالنسبة للمنسوجات، ولكن كان من الواجب دفع الضرائب من هذه الأرباح فضلاً عن مصروفات الرحلة، وكان التجار في الأناضول يعيدون الفضة إلى وكلائهم في آشور (وفي بعض الأحيان يكون من هؤلاء الوكلاء زوجة) وهناك عدة حالات كان التجار يأمرن وكلائهم أن

يصرفوا نصف الأموال لشراء القصدير اللازم للرحلة القادمة ونصفها على المنسوجات وكان هذا عملاً مألوفاً.

وكان كبار التجار يبقون في الأناضول عدة سنوات حيث يتزوجون زوجات من المنطقة حتى ولو كان لهم زوجات في آشور.

لدينا معلومات محددة قليلة حول نهاية المستعمرات في الأناضول أكثر من المعلومات حول بداية تلك المستعمرات، ولقد أظهرت الحفريات أربعة مستويات من الاحتلال في كانيش، ولكن وحتى الآن لم تظهر المستويات الأعمق عهداً (أو الأقدم) أي نصوص، إذ إن معظم الألواح كانت تأتي من الفترة الثالثة من الاحتلال، وقد انتهت هذه الفترة بحدوث كارثة وهي حدوث حرائق عامة.

ومن الممكن أن يكون المكان قد هوجم ونهب وبمرور الزمن بعد نحو ثلاثين إلى خمسين عاماً بقي المكان فيها في حالة خراب، ثم عاد الآشوريون التجار واستأنفوا احتلالهم للمكان وبدأت الوثائق تظهر مرة أخرى وكانت أقدم وثيقة قد كتبت أثناء حكم شمسي أداد (١٨١٣ - ١٧٨١) ق.م، وتضع الفترة التي لم يحدث فيها أي احتلال نهاية المجموعة الرئيسية الأقدم من الوثائق وعهدها فيما بين ١٨٦٠ و ١٨٤٠ ق.م، وهكذا فهي تغطي حوالي ستين إلى ثمانين عاماً تشمل حكم إيريشوم الأول (الذي امتد أربعين عاماً بدءاً من عام ١٩٠٠) وهذه النتيجة التاريخية تتطابق مع الحقيقة التي مفادها أن إيريشوم كان أقدم حاكم آشوري مذكور في النصوص الكانيشية، ولقد لاحظنا سابقاً نشاطات هذا الملك التجارية في بابل ولذلك فإنه من المعقول أن نفترض أنه بالإضافة إلى ذلك قد قدّم تأييداً نشيطاً للتجارة مع كبادوكيا.

ويقترح البعض أن يكون إيريشوم قد أسس بعض المستعمرات الآشورية في كانيش وأماكن أخرى كعمل رزين من أعمال السياسة، ولكن لا يبدو هذا الرأي مقبولاً فالبنية التحتية المشمولة في هذه التجارة من الصعب أن تنشأ فجأة بمجرد إصدار قرار سياسي إذ إنها لا بُدَّ أن نمت ونشأت عن طريق توسع تدريجي في الاتصالات خلال مدة طويلة من الزمن.